أزمة بصر

ضرب صوت المنبه معلنًا الساعة الثامنة صباحًا، موعد استيقاظ (خالد)، مد يده ليُغلق المنبه، لم يعتد الاستيقاظ على أول جرس له.. كان جسمه ثقيلًا، وكأن إعصارًا ضربه، يريد أنْ ينهض، ولكنه لا يستطيع، قرر أنْ يختطف نصف ساعة أخرى قبل الاستيقاظ، انقطع عن التفكير، وأحس بجسده يتخدر ويدخل في حالة اللاوعي، ففاجأه جرس المنبه من جديد.. انتفض على صوته، واعتدل على السرير.. كم هو مزعج هذا المنبه!

فتح (خالد) عينيه، وهو يتثاءب، لم يَحصل على كفايته من النوم، لكنه مضطر للاستيقاظ، لا يرى جيدًا، دعَك عينيه بكلتا يديه ثم عاود فتحهما، لكن لم يتغير شيء، ضباب.. غشاوة على عينيه، قال لنفسه:

ـ سأذهب لأغسل وجهي وأتوضأ وأحاول الاستفاقة.

تحرك في هدوء مغادرًا الفراش، استند على الحائط وهو يتحرك، وذهب إلى دورة المياة، وغسل وجهه، ونظر إلى المرآة، فوجد نفسه على ذات الحال..

الضباب والغشاوة.. فاعتراه الخوف:

ـ ترى ماذا حدث لِعَيْنَيَّ؟

تذكر أحداث الليلة الماضية.. كانت حفل عَقد قَرانه على (جاسمين) في أحد السفن العائمة، سهرة جميلة، أسطورة من الفرحة والسعادة حضرها كل الأهل والأصدقاء والأحباب، فرِح كثيرًا، وسعِد أكثر بارتباطه بها، فمنذ جمعتهما المواقف والأقدار، وغزاه شعور لذيذ كحرارة خط الاستواء، أيْقن أنها الوحيدة التي كتبت لقلبه ترانيم الشغف وفتحت له أبواب الحب والهذيان؛ فصار يتذوق بها لذة الحياة..

أكثر الاشياء قداسة.. ما تَغيب عن إدراكنا في البدايات، وتصل بحواسنا إلى الرنين بين الصمت والكلمات.. أكثر الأشياء قداسةً ما تستحيل على التعبير.

في الليلة الماضية.. شاهد قلبه وأحلامه يغادران صدره، ويرتقيان للغيمات إسْقَاطًا للمسافات، وإشراقًا لصباحٍ آتٍ بكل أكسيد السعادات، فهو بحبها يحيا، حبًّا يهابه التاريخ، حبًّا خُلِقَ فيه كل أشكال الأمان، انتبه للحظة أنَّ ما أكله وشربه، تناولته أيضًا حبيبته، فأخذ خطوات حذرة إلى هاتفه المحمول، وطلبها:

ـ صباح الخير، حبيبتي.

ـ صباح الخير، حبيبي.

ـ هل نمتِ بشكل جيد.

ـ لم أنم طبعًا.

قالتها، وهي تضحك، بمزيج من الأنوثة والخجل..

وعادت واستطردت:

- وأنت، حبيبي؟
- نمت من التعب.
- لَكَ الأفضلية في النوم، ولي الأفضلية بالسعادة.

صمت خجلًا، وتذكر سبب اتصاله بها، فأردف:

- سأقوم بتجهيز نفسي، ونلتقي بإذن الله في العمل.
- حسنًا حبيبي، لنلتقي هناك.

أنهى المكالمة باقتضاب، لم يرد أنْ يعكّر صفو إحساسها بالفرح.. قال لنفسه بصوت مسموع:

- سأحكي لها عندما ألقاها.

توخَّى الحذر وهو يصلي، ثم وهو يرتدي ملابسه استعدادًا للمغادرة.

فلما نزل الشارع وسار بسيارته في الطريق، تجنب السرعة على غير عادته، لا يريد اصطدامًا وهو على حاله، حاول تجنب الشوارع الرئيسة حتى لا يتفاجأ بحادث أو شُرطيّ.

كان يرى ولكن بضبابية، ارتبك لمّا شاهد الطريق أمامه فارغًا، وكلما سار ازدادت دهشته، لا يرى أي بشر، الشوارع خالية إلّا منه، لم يكن في الأمكنة التي عبرها سواه.

أوقف سيارته أمام الشركة واتجه إليها، لا رجال أمن، ولا أحد يعترض طريقه.. بدأ الريب يتمكن منه.. مالذي يحدث؟ وماهذا الصباح الغريب؟

صعَد في المصعد إلى مكتبه فأصابه الذهول.. المكان فارغ تمامًا، لم يعثر على أحد ولم يتعثر بأحد، كانت الجمادات حوله فقط، لا عُمَّالَ، ولا مُوَظَّفِين.. أين ذهب الجميع؟

لوهلةٍ وجد نفسه سعيدًا.. فما أجمل أنْ يكون محيطك هادئًا، من الضوضاء.. من الإزعاج، خاليًا من البشر، فهُم أساس الصخب، وقد كانت أمنية من أمنياته وهو صغير، ألّا يبقى على الأرض غيره، تمنى أنْ يغادر البيت للشوارع، ينطلق ويتحرك كيفما يشاء، وأول مكان يذهب إليه هو محل البقالة المجاور لبيت العائلة، كان يعمل فيه شاب بدين مقيت، المحل كان ممتلئًا بأنواع وأصناف الشيكولاتة والحلوى الكثيرة، كثير منها مستورد، لطالما كانت نظرة ذلك البدين الرامقة له حاجزًا بينه وبين حتى إمساك تلك الملذات، سيذهب أيضًا للمتاجر ويرتدي كل الملابس التي يريدها، سيغني ويرقص بصوت عالٍ، ويملأ الدنيا ضجيجًا.. ضجيجًا من صناعته هو فقط، وكأن المدينة، بل الكوكب كله ملكه، يفعل به ما يشاء وقت ما يحلو له بدون قوانين أو رقابة، ابتسم من سخافة الفكرة، يَا لأيَّامِ الطُّفُولَةِ.. فلو كان كذلك ما جلس على مكتبه الآن!

ـ مشتت؟

نظر إلى مصدر الصوت فوجدها أمامه، وصُعق حتى شَهق، صُعق ليس لوجودها أمامه بوجهها، وجه القمر الذي أسر قلبه، كنفحة بخور مُعتّق تتطاير بين موجات الهواء، ولا لبصره الذي عاد حادًا يراها ويرى كل شيء بلا ضباب، ولكن لأنَّ من خلفها كان الناس.. كل الناس، العمال والموظفون يتحركون ويتحدثون، الطابق كله يعج بالبشر، وكأنهم كانوا في خندق وانفجر.

صمته المريب وقلقه أزعجها، فأردفت:

ـ خالد ما بك؟ هل أنت بخير؟

لم يُجِبْ، تمكن الذهول منه في أعلى درجاته، شعر أنَّه كالغريق في بحر أسئلة بلا إجابات، اقتربت منه وهزته في عنف خائفة، وقالت:

ـ خالد ما بك؟ لمَ هذا الذهول والصمت؟

كان يتابع عامل البوفيه وهو يقدم لزميلته (سهام) التي تجلس على مكتبها أمامه فنجان الشاي الذي تتناوله كل صباح، ومن خلفه (إبراهيم) يقدّم بعض الأوراق لزميله (عبدالرحمن)، و(هادي) يرتّب حقيبته، أما (أمين) فكان يتشاجر مع (منذر) وبصوت عالٍ.. أين كان كل هؤلاء من دقائق؟!!

انتبه لهزتها وقلقها، وقال لها:

ـ لا تقلقي، حبيبتي.

أجابته والقلق بادٍ على محياها:

ـ كيف، ووجهكَ أصفر، وعيناكَ شاردتان؟

رد عليها وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

ـ لا عليكِ.. أنا بخير.

ـ كيف ذلك؟ والجميع أخبروني بما أراه، فمنذ دخلتَ المكتب وأنت لم تحدِّث أحدًا، وَحَتَّى لَمْ تَرُدّ على أي مباركات.

ـ أجل، فعلت.

ـ وتعترف؟!!

ـ أجل.

صمتت.. فأردف وهو ينظر لها بحب وحنان:

ـ فأنا من دونكِ لا أرى أحدًا..لا أرى الناس.